المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

مقدمة المؤلف — القاهرة سنة ١٨٣٥

في زيارة سابقة للقاهرة قصدت بها — على الأخص — دراسة اللغة العربية في أشهر مدرسة، جعلت أكثر همي ملاحظة شمائل المصريين المسلمين وعاداتهم؛ وسرعان ما أدركت بعد معاشرة هذا الشعب سنتين ونصف سنة أن كل ما أمكنني الحصول عليه سابقاً من الأخبار المتعلقة بهم، لا يكفي ليكون ذا فائدة كبيرة لمن يَدْرُس الأدب العربي، أو ليقضي حاجة القارئ العادي. لذلك رغبت في تدوين للملاحظات عن أشهر عاداتهم لأستزيد لنفسي من جهة، ولأستطيع أن أزيد في معرفة مواطني بالطبقات المتحضرة لأمة من أهم أمم العالم من جهة أخرى، وذلك برسم صورة مفصلة عن سكان أكبر مدينة عربية. إلا أن زيارتي الأولى لم تكف لبلوغ هذا الغرض مع مثابرة دروسي الأخرى، فصرفت النية عن نشر ما قيدته عن المصريين المحدثين. وبعد خمس سنوات من عودتي إلى انجلترا عُرضت هذه المذكرات على بعض أعضاء من لجنة جمعية نشر المعارف المفيدة Commettee of the Society for the diffusion of useful knowledge فاستحسنوها وأوعزوا إلى اللجنة أن تعنى بموضوعها، وطرافة بعض محتوياتها، فعهدت إليّ تكملتها ثم طبعها. وقد كان ذلك حافزاً لي على قبول النصيحة ومثابرة العمل. وفي أقرب فرصة عدت ثانية إلى مصر. وبعد أن أقمت أكثر من سنة في عاصمة ذلك البلد، ورحلت نصف سنة في الوجه القبلي، أتممت — بقدر ما استطعت — العمل الذي تعهدت به

قد يقال إن القارئ الإنجليزي استفاد من كتاب الدكتور رَسِل Russel عن أهل حلب وصفاً صادقاً لشمائل العرب وعاداتهم؛ ولا أحب أن أصم أمانتي الكتابية التي أدعيها بمحاولة التقليل من المزايا الحقيقية لهذا الكتاب القيم؛ ولكن يجب أن أؤكد أن الكتاب في مجموعه قد وصف العادات التركية أكثر مما وصف العادات العربية، وأن المؤلف الأصلي وأخاه اللذين ندين له بالطبعة المزيدة المنقحة، لم يكونا يعرفان اللغة العربية معرفة كافية لإنعام النظر في بعض ما يقتضي وضع الكتاب معالجته من الموضوعات المهمة، ولم يكن منصبهما المعروف في حلب ولا شعورهما الوطني يسمحان لهما أن يتنكرا هذا التنكر الضروري الذي يمكنهما من إيلاف الكثير المهم من الحفلات الدينية، والأفكار الاجتماعية، والأساطير الشعبية — التي قاما بوصفها. فنقص الملاحظة هو الخطأ الوحيد الذي استطعت أن أكشف عنه في كتابهما العلمي الجليل

أما ظروفي فكانت غير ذلك. فقبل قدومي الأول إلى هذا البلد شدوت شيئاً من العلم بلغة العرب وآدابهم. وكنت أستطيع — بعد سنة من قدومي — أن أتحدث إلى الشعب الذي كنت أعيش بين أفراده في شيء من السهولة. وقد عايشت بصفة خاصة مسلمين من جميع الطبقات؛ وأخذت إخذهم في الحياة العامة. وكنت أصرح دائماً أني أوافقهم على آرائهم كلما سمح بذلك ضميري اكتساباً لصداقتهم وإخلاصهم؛ وفي أحوال كثيرة أخرى أمسكت عن مخالفتهم في الرأي، بقدر ما امتنعت عن أي عمل ينفرون منه. فأمسكت عما يحرمه دينهم من الطعام والشراب، وتركت ما لا يألفونه من العادات والأساليب: كاستعمال الشوك والسكاكين. واستطعت بفضل ألفتي لحفلاتهم الدينية العامة أن أشاهد أعيادهم وطقوسهم، من غير أن أثير الشك في أني أجنبي لا يحق له التدخل في شؤونهم. وبينما كان العامة يظنونني تركياً — من ملابسي التي وجدتها أكثر ملاءمة لي —

كان أصدقائى يعرفون طبعاً أننى إنجليزى . ولكنى ألزمتهم أن يعاملونى معاملة المسلم باعترافى مختاراً بأثر العناية الإلهية فى ظهور الإسلام وانتشاره، وبإقرارى، عند ما أسأل، باعتقادى فى المسيح طبقاً لما جاء فى القرآن من أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . وهكذا حسُن رأيهم فىّ وقويت ثقتهم بى، ولكن إلى حدلم يخلنى من مجابهة بعض الصعاب. والمسلمون يكرهون أن يبوحوا بشىء يتعلق بدينهم أو بأساطيرهم الذين يشتبهون فى أنهم يخالفونهم فى العاطفة؛ ولكنهم لا يأبون الكلام فى هذه الموضوعات مع من يعتقدون أن بينه وبينهم معرفة وألفة . لذلك كنت أعمد إلى سؤال الذين هم أكثر تساهلاً وأقل علماً لأحل الذين هم أوسع معرفة وأضيق صدراً على الكلام فى المسائل التى أريدها . وبهذه الطريقة نجحت فى التغلب على تردده . وكان لى أستاذان للعربية وآدابها، وللدين الإسلامى وفقهه، يدرسان لى بانتظام وبأجر . وكنت أسألهما عما أشك فيه لأحقق ما سمعته فى أحاديثى مع أصدقائى، أو أصححه أو أضيف إليه . وأحياناً كنت أتصل بالسلطات العليا، وكان من دواعى غبطتى أن أعد بين أصدقائى فى هذه المدينة بعض رجال بلغوا شأواً بعيداً فى المعارف الشرقية

وربما يفيد القارئ أن أعرّفه بأحد معلمىّ الذين أشرت إليهما آنفاً، وأن أبين له فى الوقت نفسه كيف كان كثير من مواطنيه ينظر إلىّ : ذلك هو الشيخ أحمد (أو السيد أحمد، لأنه من طبقة «الأشراف» الكثيرة العدد : أى من سلالة النبي) وكانت سنه تربى على الأربعين باعترافه، ولكن يبدو عليه أنه يناهز الخمسين . وكانت سحنته وخليقته تستحقان الذكر : كان ربعة إلى القِصر، وكان أصهب اللحية قد وشّعها المشيب . ويظهر أن الوَرَس قد أصابه منذ سنوات عديدة . وهو يكحل عينيه فى المناسبات الخاصة ولا سيما فى عيدى الفطر والأضحى. والكحل قلما يستعمله غير النساء . وهو لا يفتخر بانتمائه إلى الرسول فحسب، بل يتمدح كذلك بانتسابه إلى الولى المشهور الشعراوى[1] . وبشرته الصافية تؤيد ادعاءه أن أجداده عاشوا منذ أجيال فى مناطق أفريقا الشمالية الغربية . وكان يعيش على ميراث قليل مع اتجاره فى الكتب . وكان يزورنى كل ليلة تقريباً لينتفع من مهنته من ناحية، وليجتمع بى، أو ليتحدث إلىّ التدخين وشرب القهوة من ناحية أخرى

وكان قبل احترافه تجارة الكتب ورثة عن أبيه، قد قضى بضع سنوات لم يحترف فيها غير الذكر فى الحفلات الصوفية . والذكر عبارة عن جماعة يقفون مترنحين يرددون اسم الله وصفاته الخ . وهو لا يزال إلى اليوم يقوم بهذا العمل . وكان حينئذ درويشاً فى الطريقة السعدية، وأهل هذه الطريقة معروفون على الأخص بأكل الثعابين الحية . ويقال إنه كان واحداً من آكلى الثعابين، ولكنه لم يقصر نفسه على أكل لحم بمثل هذه السهولة . ففى ذات ليلة بينما كان فريق من أهل طريقته فى حفل حضره شيخهم، اعترت صديقى جذبة، فخطف زجاجة طويلة كانت تحيط بقنديل موضوع على الأرض وأكل جزءاً كبيراً منها . . . فدهش الشيخ والدراويش الآخرون، ونعوا عليه خروجه على نظم الطريقة، لأن أكل الزجاج لم يكن من الكرامات التى كان يسمح لهم باظهارها . ثم طردوه فى الحال، فدخل فى الطريقة الأحمدية . ولما كان أهل هذه الطريقة هم أيضاً لا يأكلون الزجاج، فقد عزم على ألا يعود إلى فعلته مرة أخرى ... غير أنه بعد ذلك بقليل أخذته هذه الجذبة فى اجتماع بعض الإخوان من أهل الطريقة وفى حضرة كثير من رجال الطريقة السعدية، فوثب على شمعدان وقبض على مصباح من مصابيحه الزجاجية الصغيرة، فابتلع نصفه وشرب ما فيه من الزيت والماء . فقادوه إلى شيخه ليعزره على هذا التعدى، ولكنه أقسم ألا يعود إلى أكل الزجاج أبداً، فعفا عنه وأبقاه فى الطريقة . وعلى الرغم من حلفه اليمين لم يلبث أن عاد إلى دينه من أكل الزجاج . وقد حاول أحد الحاضرين من الإخوان أن يقلده فتشبث قطعة كبيرة من الزجاج بين لسانه وسقف حلقه، وقد شق على صديقى أحمد استخراجها . فأعيد ثانية إلى شيخه، ولما لامه على الحنث بقسمه والرجوع فى توبته أجاب بهدوء : أتوب مرة أخرى . وما أحسن التوبة، لأن الله قال فى

(١) هكذا ينطق عادة ، بدلا من الشعرانى

كتابه العزيز : « إن الله يحب التوابين » فصاح الشيخ مغاظاً : أتجرؤ على هذا التصرف ثم تستشهد بالقرآن أمامي ؟ » ثم أمر بعد هذا التوبيخ أن يسجن عشرة أيام . ثم طلبمنه القسم مرة أخرى على أن يمتنع عن أكل الزجاج . وبهذا سمح له بالبقاء في الطريقة الأحمدية ؛ وقد حرص على أن يبر بقسمه هذه المرة

وقد قص عليّ هذه الوقائع من كان مكلفا بمراقبته من الإخوان ثم اعترف لي هو بعد ذلك بحقيقتها

وقد عرفت الشيخ أحمد قانعاً بزوجة واحدة من زمن طويل؛ إلا أنه سمح لنفسه الآن بزوجة أخرى[1] استمرت تعيش في منزل أهلها . ومع ذلك فقد اهتم بأن يؤكد لي أنه ليس من الغنى بحيث يرفض الكسوة السنوية التي أهديها إليه . وفي زيارتي الثانية لمنزله أثناء إقامتي الحالية في هذا المكان حضرت أمه لدى باب الغرفة التي كنت جالساً فيها مسه ، لتشكو إليّ سوء عمله باتخاذه زوجة جديدة . وكانت تشير بيديها من خلال الباب بالحركة اللائقة ليكون لكلامها تأثير ؛ أو لعلها كانت تريد أن تظهر جمال راحة اليد وأطراف البنان المخضوبة بالحناء الرطبة . إلا أنها كانت تستر شخصها ، فأخذت تناشد شعوري بقوة وتقول :

« يا أفندي ! إني أضع نفسي تحت رحمتك ! أقبل قدميك ! لا أمل عندي إلا في الله وفيك »

فقلت لها : « ما هذا الكلام يا سيدتي ؟ أي مصيبة أصابتك؟ وماذا أستطيع أن أصنع لك ؟ أخبريني »

فاستمرت تقول : إبني هذا ، إبني أحمد ، شخص لا قيمة له . له زوجة طيبة ، عاش معها سعيداً على بركة الله ستة عشر عاماً . وها هو الآن يهملها ويهملني ويتخذ زوجة أخرى صغيرة السن قليلة الحياء ... وهو يبدد نقوده على هذه القردة وعلى غيرها من أمثالها ، وينفق على أبيها وأمها وأعمامها وأخيها وأولاد أخيها، ولا أعلم من عداهم ، ثم يقصر في حقنا — أنا وزوجته الأولى — ولا يوفر لنا الراحة التي تعودناها من قبل ... والنبي ! ورأسك التالي ! إنني أقول الحق . . . أقبل قدميك ، أرجوك أن تلح في تطليق زوجته الجديدة . . .

وكان الرجل المسكين أثناء مخاطبة أمه لي من وراء الباب ينظر بغباء ، وما كادت تذهب حتى وعد بتحقيق رغبتها ... ثم قال : على أن المسألة صعبة ، فقد كنت متعوداً أن أقام أحياناً في منزل شقيق البنت التي تزوجتها أخيراً ، وهو يشتغل كاتباً عند عباس باشا ... ومنذ أكثر من سنة ، أرسل عباس باشا في طلبي وقال : سمعت أنك تقام غالبا في منزل كاتبي محمد . . . لماذا تفعل هذا ؟ ألا تعلم أن هذا غير لائق وفي المنزل نساء ؟...

فقلت : سأتزوج من أخته ...

فسألني الباشا : إذاً لماذا لم تتزوجها من قبل ؟

— لأن سنها تسع سنوات فقط !

— هل عقد العقد ؟

— لا ...

— ولم لا ؟

— ليس في قدرتي الآن دفع المهر

— وما مقدار المهر ؟

— تسعون قرشاً . فقال الباشا

— هاك إذاً النقود ... وليعقد العقد حالاً

فهكذا ترانى أنني اضطررت إلى التزوج من البنت ، وأخشى أن يغضب الباشا إذا طلقتها ؛ ولكني سأتصرف تصرفاً يجعل أخاها يشدد في طلب الطلاق ، ويومئذ أعود ثانية إلى عيش السلام والهدوء . وهذا مثل طيب للراحة التي ينعم بها من يتزوج اثنتين !

ومنذ وقت قريب عرض على نسخة من القرآن لأشتريها ، وظن من الضروري أن يلقي إليّ بعض المعاذير . وقد لاحظ أنني من طول ما ألفت طقوس المسلمين أقر ضمناً أنني واحد منهم ، وأن من الواجب عليه أن يعتبرني أحسن اعتبار ، وأنه بفعل ذلك مطمئن النفس ، لأنه يعلم أن اعتقادي علانية بالإسلام يُغضب عليّ مليكي ، وأنه لأجل ذلك لا يمكنني أن

(١) وقد قال لي إنه تزوج أكثر من ثلاثين مرة ، ولكني أعتقد أنه يبالغ كثيراً

أفعل هذا[1] وقال لى « : إنك تحييني بقولك : السلام عليك . لذلك أكون آثماً لو قلت أنك كافر ، لأن الله عز اسمه قال : ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » . ثم أضاف إلى ذلك قوله : «وعلى هذا ليس حراماً أن أضع بين يديك القرآن الكريم . ولكن من مواطنيك من يأخذه بيده القذرة ، بل ويجلس عليه . وأنا أستغفر الله من مثل هذا الكلام وأستبعد أن تفعل هذا وأنت والحمد لله تعرف أنه : « لا يمسه إلا المطهرون » وتراعيه . وفى مرة أخرى باع نسخة من القرآن بناء على طلبي لمواطن لى ؛ وفى أثناء انعقاد الصفقة دخل الغرفة إنسان ، فانزعج مواطنى وأسرع فوضع الكتاب على المقعد وخبأه بجزء من ملابسه . فأخجل هذا العمل الكتبي ، وظن أن صديقى جلس على الكتاب ، وأنه يفعل هذا احتقاراً له ؛ فلم يخف باعتقاده أن الله سيعاقبه أشد عقاب على هذا البيع الحرام ؛ وكان هناك شيء واحد صعب علىّ أن أقنعه بعمله أثناء زيارتى السابقة لهذا البلد ؛ وهو أن يذهب معى فى وقت خاص إلى مسجد الحسنين — وهو المدفن المشهور لرأس الحسين — ولأقدس المساجد فى العاصمة المصرية . وبعد ظهر يوم من أيام رمضان كنت أمشى وإياه أمام أحد أبواب هذا الجامع ، وكان ساعتئذ يغص بالأتراك ، وكثير من سكان المدينة العظماء بين الحشد ... فظننت أنها مناسبة طيبة لأشاهده من كثب ، وطلبت من رفيقى الدخول معى فرفض بحزم خوفاً من أن يُعرف أنى انجليزى ، وكان من الممكن أن يثير ذلك غضب المتعصبين من الأتراك الموجودين هناك فأعرض نفسى إلى بعض الأذى . فدخلت وحدى وبقى هو بالباب يتهمنى بعينه الوحيدة متعجباً من جرأتى ؛ فلما رآنى عارفاً بالأساليب العادية : أطوف حول الستر البرزى المحيط بالضريح ، وأقوم بأوضاع الصلاة المنتظمة ، دخل وأقام صلاته بجانبي

وأود بعد سرد هذه الحكايات أن أذكر أن أخلاق أصدقائى الآخرين لا يلاحظ عليها مثل هذا التشدد . وكان استقبالى لضيوفى لا يخرج عن عادات الضيافة الشرقية المألوفة . كنت أقدم إليهم الشيك والقهوة وأدعوهم إلى مشاركتى الغداء أو العشاء . وقد كتبت الكثير من أخبارهم بالعربية بأملائهم ثم ترجمتها إلى الانجليزية ونشرتها فى هذه الصفحات

والمقصد الأول من وضع هذا الكتاب هو تمحيص الأشياء وتحقيق الحوادث ؛ فلم أضح بالحقيقة فى سبيل تجميل القصة . أما الصور التى نشرت فيه فقد رسمتها للشرح لا للزينة .

(يتبع) عبد الله طاهر نور

(١) من الاعتقادات الشائعة لدى المصريين أن كل سائح أوربى يزور بلادهم يكون رسولا من ملك بلاده ، ومن الصعب إقناعهم بالعكس إذ هم يستغربون تعرض الشخص لكثير من المضايقات والنفقات بقصد الحصول على معارف الأمم الأجنبية .

إعلان

مجلس مديرية الدقهلية يعلن عن توريد الأغذية اللازمة للماجئه الثلاثة عن سنة ٤١ — ٤٢ فعلى راغبي الدخول فى هذه المناقصة أن يطلبوا القوائم الخاصة بالأغذية والشروط الخاصة بالتوريد من إدارة المجلس وثمن القائمة خمسون مليما والشروط مئة وخمسون مليما على أن يكون العطاء مصحوبا بتأمين ابتدائى مقداره ٢ ٪ من العطاء وقد حدد آخر ميعاد لقبول الطلبات يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ والمجلس حر فى قبول أو رفض أى عطاء بدون إبداء الأسباب . ٨٤٨٣